القيم الإنسانية في شعر عروة بن الورد

د. جبار عباس اللامي
كلية التربية – جامعة ميسان

المقدمة: تعد الصعلكة وشعراؤها من القضايا التي اهتم بها الدارسون اهتماماً كبيراً، وما زالوا ذاهبين في تفسيرها ودرس ظواهرها وتاريخها الممتد منذ الجاهلية حتى ظهور الإسلام ورسوخه مذاهب شتى.

وقد أثارت بتفرعاتها المتعددة الاجتماعية والفكرية والسيكولوجية وأبنيتها الفنية وما زالت تثير مجموعة من الأسئلة حول تفسير وتحليل وقيمة هذا الشعر الذي عبّر من خلاله وبه شعراؤها عن تجاربهم وهم يتحركون في إطار هذه الظاهرة الفريدة والغريبة المتمردة الداعية إلى هدم قيم ومثل سائدة وإحلال قيم ومثل جديدة غيرها في مجتمعات قبلية بدوية محترية، فكان أن ميزوا أنفسهم، وميزهم الرواة القدامى والباحثون الجدد عن غيرهم من الشعراء تحت اسم الصعلكة والصعاليك.

ومن هنا جاء هذا البحث لرصد مجموعة من القيم الإنسانية التي تمثلت في حركته الاجتماعية كل مقومات الصعلكة وأفكار الصعاليك وهمومهم وما طلبوه من البطولة والغنى والمجد والارتحال في طلب المال

ومحاربة الظلم والفقر والطبقية، وكيف وقف عروة أمام قضية (الموت

والحياة) وما يرتبط به الإنسان في العصر الجاهلي وربما في كل عصر بثوابت الإنسانية كالحرية والكرامة والعزة والشرف والتضحية في سبيل الآخرين انطلاقاً من الصورة المثالية للفرد الإنسان البطل المضحي الثائر والمتمرد دائماً.

وحاول البحث استكمال خطوط هذه اللوحة المثيرة لشاعر عاكسته الظروف والبيئة والنسب والأبوة والخؤولة والفقر فرد على ذك كله بسلوك إنساني ومن ثم شعري غاية في الرهافة والحدّة والتوتر حتى بدت صورة الشعر هي صورة الشاعر وبمعنى من المعاني فان السلوك الإنساني صار فعلاً شعرياً متساوقاً إن لم يكن متطابقاً تمام التطابق بين الفعل والشعر.

ولم ينس البحث الإشارات المتعددة لقضية الانفصام للطبقي الحاد للذي عاشه الشاعر الجاهلي، ولا مؤثرات النسب وجريرته ولا الموقف الاجتماعي القبلي الذي نشأ منه الشاعر الصعلوك الذي رفض كثيراً من قيمة وثوابته وظواهره من زاوية الرفض والتمرد القائمة على رؤية إنسانية شاملة وواقعية وصادقة في آن واحد.

حفل الشعر الجاهلي بمزيد من النصوص الشعرية التي اتسمت بنزعتها الإنسانية النبيلة، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما نراه في شعر الصعاليك من مقاومة للظلم والطغيان في سبيل تحقيق لون من العدالة الاجتماعية في مجتمع كان بأمس الحاجة إلى مثل تلك العدالة.

والصعاليك جمع كبير، اشتهر منهم في الجاهلية عروة بن الورد، وتأبط شراً، والشنفرى، والسليك بن السلكة، وعمرو بن براقة، والأعلم الهذلي، وقيس بن منقذ، ومالك بن حريم الهمداني، وصخر الغي الهذلي، وعمرو بن عجلان، وحاجز بن عوف الأزدي.

واشتهر منهم في الإسلام عبدة بن الطبيب، وأبو خراش الهذلي، وفضالة بن شريك الأسدي، وأبو الطمحان القيني، وغيرهم.

وقد حظيت ظاهرة الصعلكة باهتمام كثير من الباحثين[١]، وبخاصة الدكتور يوسف خليف[٢] الذي أغنانا عن متابعة بيان مفهومها اللغوي والاصطلاحي وظروف نشأتها، وأسباب ظهورها، وإبراز أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العربي قبل الإسلام.

وعمد الدكتور يوسف خليف إلى وصف هذه الظاهرة بأنها (حركة رافضة للقيم القبلية.. وتهدف إلى رفع الظلم عن الفقراء، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد المجمع في حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادي الفطري بين طبقتي هذا المجتمع الاقتصاديتين: طبقة المال، وطبقة الصعاليك بما تنهبه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى)[٣].

وسرعان ما تابعه كثير من الباحثين من أمثال: الأستاذ وائل أيوب الذي جعل الصعلكة (نزعة إنسانية نبيلة، وضريبة يدفعها القوي للضعيف، والغني للفقير، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم نصيباً، بل حقاً يقتسمونه إن لم يؤد لهم، وتهدف إلى إقامة العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين: الأغنياء والفقراء)[٤].

وذهب الأستاذ أحمد الشايب إلى اعتبار الصعلكة (ثورة على النظام الاقتصادي والاجتماعي)[٥] في الوقت الذي جعلها الدكتور سعد دعبيس (شبه ثورة

---

[١]- انظر في ذلك على سبيل المثال: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . د. عبد الحليم حنفي، والصعاليك في الجاهلية . لصوص أم رواد ثورة اجتماعية . محمد أمين ضناوي.

[٢]- انظر تفاصيل ذلك في كتابه الموسوم: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.

[٣]- المصدر نفسه: ٣١٩.

[٤]- حركة الصعاليك والنزعة الاجتماعية الاشتراكية: ٧٣ (بحث).

[٥]- تاريخ الشعر السياسي: ٤٩.

اجتماعية ضد استبداد الأغنياء في المجتمع القبلي الجاهلي)[١].

فيما وصف أصحابها بأنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية[٢]، وأن تمردهم كان (نواة ثورة أدبية واجتماعية يمثلها هؤلاء الشعراء الواقعيون)[٣].

ووصف أدونيس أصحاب شعر الصعلكة، بأنهم (شعراء التجربة الذاتية الذين جسدوا صورة التحول لزلزلتهم القيم الموروثة دينياً واجتماعياً، وأخلاقياً وبمشاركتهم إقامة نظام جديد للقيم)[٤].

ويعد عروة بن الورد [٥]، الذي ينتهي نسبه إلى قبيلة عبس من أبرز الشعراء الصعاليك وأكثرهم نبلاً وإنسانية حتى عرف بأنه(أبو الصعاليك)[٦]، وكان هو نفسه يسمي صعالكيه عياله كما يتضح ذلك في قوله[٧]:

ومَـــن يَـــكُ مِثْلِـــي ذا عِيـــالٍ ومُقْتِـــراً

مِـــن المـــالِ يَطْـــرَحْ نَفْسَـــه كـــلَّ مَطْـــرَحِ

وسيرة هذا الصعلوك مليئة بالنبل والكرم والشجاعة والفروسية، وقد قال فيه صاحب الأغاني: (هو شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها، المعدودين المقدمين الأجواد)[٨].

---

[١]- تيارات معاصرة من الشعر الجاهلي: ٢٣٩.

[٢]- الحياة العربية من الشعر الجاهلي: د. أحمد الحوفي: ٣٠٤.

[٣]- أصول نظرية نقد للشعر عند العرب ومدارات نقدية:د. عنان غزوان:١٠١.

[٤]- الثابت والمتحول: ٢٩/٢.

[٥]- انظر ترجمته كاملة في الأغاني: ٧٢/٣، وللاستزادة راجع: جمهرة أشعار العرب: ١٤٤، والشعر والشعراء: ٤٥٣ وما بعدها.

[٦]- الأغاني: ٨٨/٣.

[٧]- ديوانه: ٢٣.

[٨]- الأغاني: ٧٣/٣.

وقال فيه الدكتور شوقي ضيف: (والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة، وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة، إذا كان يستشعر في قوة فكره التضامن الاجتماعي وما يطوي فيها من إيثار وبر بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشريته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء)[١].

وقد توافرت في شخصية عروة بن الورد مجموعة من العناصر الأساسية رشحته لأن يكون (داعية أول لمذهب الصعلكة)[٢]، فضلاً عن إسهامها في تشكيل شخصيته المتفردة، وفي تشكيل تجربته الشعرية المتميزة من بين صعاليك عصره جميعاً.

ومما لا شك فيه أن سيرة هذا الشاعر . بأحداثها وظروفها ومؤثراتها . هي التي جعلته صاحب شخصية قوية قادرة على مواجهة الواقع المرير بثقة وصبر بغية تحقيق حلمه، وحلم آلاف الفقراء من أمثاله في الخلاص والحرية والكرامة.

ومن المعلوم أن حالة الألم والمعاناة الشديدة التي تعرض لها عروة والتي تسربت في نتاجه الشعري كانت بسبب إحساسه الشديد بالظلم الأسري من جهتي الأب والأم معاً، فعروة نشأ مضطهداً مقموعاً بسبب إيثار أبيه لأخيه الأكبر عليه، فضلاً عن أن عبساً كانت تتشاءم من أبيه هذا لأنه كان سبباً في حرب عبس مع فزارة[٣]، حتى أصبح هذا الأب مصدر كراهية له بين أبناء قبيلته . وقد تضاعف إحساسه بالظلم لشعوره بضعف انتمائه النسبي من جهة الأم التي ينتهي نسبها إلى نهد من قضاعة، وكانت نهد أقل شرفاً من عبس مما جعل قومه ينظرون إليه بازدراء واحتقار .وهذا ما جعله يسخط على أخواله النهديين بسبب ما تجرع من خزي وذل

---

[١]- العصر الجاهلي: ٣٨٧.

[٢]- موسوعة الشعر العربي: ١٥٧/١.

[٣]- الأغاني:٨٨/٣.

لانتمائه إليهم من جهة الخؤولة، فنراه يتمنى أن أمه لم تنتسب إلى نهد، مؤكداً رغبته بالانتماء إلى طبقة العبيد بدلاً من الانتماء إلى هؤلاء الأخوال الجبناء كما نلاحظ ذلك في قوله:[١]

مـــا بـــيَ مـــن عـــارٍ إخـــال علمتْـــهُ

ســـوى أَنَّ أخـــوالي، إذا نُســـبوا، نَهْـــدُ

إذا مـــا أَردتُ المجـــدَ قَصَّـــرَ مجـــدُهُمْ

فأعيـــا علـــيّ أن يُقـــارَبني المَجْـــدُ

فيَـــا ليـــتَهُمْ لَـــمْ يَضـــرِبوا فِـــيَّ ضَـــرْبةً

وإنـــيَ عَبْـــدٌ فـــيهمُ، وأبـــي عبـــدُ

ثعالـــبُ فـــي الحـــربِ العـــوانِ، فـــإن تـــنُج

وتنفـــرجُ الجُلّـــى، فـــإنّهمٌ الأسْـــدُ

وكرر المعنى نفسه عندما جعل مشاركة نهد في النسب سيقلل من شأنه حتى وإن كان حسيباً ماجداً كما يتضح ذلك في قوله:[٢]

لا تلـــم شـــيخي، فمـــا أدري بـــهِ

غيـــرَ أنْ شـــاركَ نَهـــداً فـــي النَســـب

كـــان فـــي قـــيسٍ حســـيباً ماجـــداً

فأتـــت نَهـــدٌ علـــى ذاك الحسَـــب

ولعل هذا يؤكد صحة ما ذهب إليه الدكتور أحمد محمود خليل عندما قال:

---

[١]– ديوانه:٢٦ نهد: قبيلة يمنية. تبخ: أي تنطفئ الحرب.

[٢]– المصدر نفسه: ١٨.

(وعلى الرغم من أن النظام الأبوي أرسى الانتماء السلالي على الأب، فقد أبدى العربي الجاهلي حرصاً كبيراً على نقاء أصوله من جهة الخؤولة أيضاً، فإذا توفرت الأصالة السلالية من الأب والأم يكون الأولاد من العراقة في الصميم، وإذا لم تتوفر الأصالة في الخؤولة فعندئذ تكون الطامة الكبرى قد حاقت بالأبناء وما عليهم إلا أن يجتروا الخزي الذي يجره عليهم أخوالهم)[١].

وقد كانت أمه سبباً أيضاً في ازدياد معاناة عروة وآلامه، وكرست عزلته في مجتمعه لأنها لم تحظ باحترام أبناء القبيلة بسبب طيشها وشرورها وشراستها، وقد ترك سلوكها هذا أثره على مكانته وسط قومه الذين لم يتورعوا في تعييره وتذكيره بهذه الشراسة التي لم يجد بداً من الاعتراف بها على الرغم من محاولته الدفاع عنها فهو القائل: [٢]

أعيّـــــر تمـــــوني أَنَّ أُمـــــي تريعـــــةٌ

وهـــل يُنجـــبنَ فـــي القـــومِ غيـــرُ التّرائـــعِ

ومـــا طالـــبُ الأوتـــارِ إلا ابـــنُ حُـــرّةٍ

طويـــلُ نجـــادِ الســـيفِ عـــاري الأشـــاجعِ

وقد أشار الدكتور سعد شلبي إلى أن (معاناة عروة من أمه تأتيه من ناحيتين: حقارة نسبها في مجتمع يعمل لأصالة النسب، وشراستها في مجتمع يجعل في عظمة الخلق تقديراً، فإذا خرج الصعاليك على مجتمعهم فأولى بعروة أن يكون أشدهم خروجاً عليه لهذه الأسباب)[٣].

ونتيجة لذلك لم يستطع عروة النجاة من ملاحقة المجتمع له، فنشأ محتقراً في

---

[١]– في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي: ٢١٩ وما بعدها.

[٢]– ديوانة: ٥٠ التريعة: المسرعة إلى الشر.

[٣]– الأصول الفنية في الشعر الجاهلي: ٣٩٨.

عيون ذلك المجتمع، وفي عيون أبناء قبيلته الذين لم يترددوا في تعييره بذلك على الرغم من كل الصفات النبيلة التي يتصف بها هذا الشاعر، فنراه يشكو من رفض قومه له في حالتي الغنى والفقر، والشباب والشيخوخة، وبالمقابل نراه يرفض تقويم الفرد على أساس نسبته الدمومية فحسب، دون الالتفات إلى الصفات الحميدة مؤكداً نوع الأخلاق التي ارتضاها لنفسه، والتي مثّلها في سلوكه القائم على الكرم والنجدة ورعاية الجار [1].

هُـــم عيّرونـــي أنَّ أُمـــي غريبـــةٌ

وَهَـــلْ فِـــي كـــريمٍ ماجـــدٍ مـــا يُعيّـــرُ؟

وَقَـــدْ عيّرونـــي المـــالَ، حـــينَ جَمـــعُهُ

وَقَـــدْ عيّرونـــي الفقـــرَ، إذ أنـــا مقتـــرُ

وعيّرنـــي قـــومي شَـــبابي ولِمَّتـــي

متـــى مَـــا يشـــا رهـــطُ أمـــرئٍ يتعيّـــر

ولا أَنتمـــي إلاّ لجـــارٍ مجـــاورٍ

فمـــا آخِـــرُ العـــيشِ الـــذي أَتَنَظّـــرُ؟

ولم تكتفِ قبيلته بازدرائه واحتقاره، بل ناصبته العداء وغدرت به، وضايقته لكنه وقف بشموخ وكبرياء في مواجهة ذلك قائلاً: [2]

وإن شـــئتم حـــاربتُموني إلـــى مـــدىً

[1] – ديوانه: ٤٠. المقتر: الفقير.

[2] – ديوانه: ١٧ الكظاظ: ما يملأ القلب من الهم والتعب والشدة. المغرب: البعيد: بالخيرات: بذوي الشرف يتصوب: ينحدر.

فَيجهـــــدُكم شـــــأوُ الكظـــــاظ المغـــــرّبُ

فيلحـــــقُ بـــــالخيراتِ مـــــن كـــــانَ أهلهـــــا

وتعلـــــمُ عـــــبسٌ رأسَ مـــــنْ يتصـــــوّبُ

ومن هنا أشار بعض الباحثين إلى أن سبب خروج عروة على قبيلته، وانتهاجه منهج الصعلكة في حياته يعود إلى (عقدة اضطهاد أبيه له، وتفضيل أخيه الأكبر عليه، وإلى احتقار قومه له، لدنو منزلة أمه في نسبها عن منزلة أبيه وبني قومه)[1].

وتبرز القيم الإنسانية النبيلة لدى عروة بن الورد متمثلة في طريقة تعامله مع قبيلته التي تنكرت له، وكانت سبباً في غربته إلا أنه ترفع أن يعاملها بمثل ما تعامله، فلم يحقد عليها، ولم ينفصل عنها انفصالاً تاماً كما فعل غيره من الصعاليك، وإنما ظل مستمراً بالولاء لها، يسرع لنجدتها إذا تعرضت للعدوان كما فعل عندما تعرضت قبيلته لعدوان بني عامر، فوقف عروة بجانبها حتى تحقق لها النصر وأفتخر بذلك قائلاً: [2]

ونحـــــن صَـــــبَحنا عـــــامراً، إذ تَمرّســـــتْ

عُلالـــــــة أرمـــــــاحٍ وضـــــــرباً مـــــــذكّرا

بكـــــلَّ رُقـــــاقِ الشـــــفرتينِ، مُهَنَّـــــد

وَلـــدْنٍ مـــن الخطّـــيّ، قـــد طُـــرَّ، أَســـمرا

[1] – موسوعة الشعر العربي: ١٥٧/١.

[2] – ديوانه: ٤١. تمرست: تعرضت وعالجت ذلك. علالة كل شئ: ما جاء منه بعد ما يمضي أوله. يقول طعناهم طعناً بعد طعن. رقاق الشفرتين: السيوف لدن من الخطي: الرماح. قد طر: قد سن. الأسمر: الرمح. الخطي: القنا.

عجبـــــتُ لهـــــم، إذ يخنقـــــونَ نُفوســـــهم

ومقـــــتلُهم، تحـــــتَ الـــــوغى، كـــــانَ أَعـــــذرا

يشـــــدُّ الحلـــــيمُ مـــــنهمٌ عقـــــد حبلِـــــهِ

ألا إنمـــــا يـــــأتي الـــــذي كـــــان حُـــــذّرا

ويرد على أعدائها، ومما يروى في ذلك أنه عندما أخذ بنو عامر امرأة من عبس، ثم من بني سكين، يقال لها أسماء فما لبثت عندهم يوماً حتى استنقذها قومها فبلغ عروة أن عامر الطفيل فخر بذلك، وذكر أخذه إياها فقال عروة يعيرهم بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية: [1]

إن تأخـــــذوا أســـــماءَ، موقـــــفَ ســـــاعةٍ

فمأَخـــــذُ ليلـــــى، وهـــــي عـــــذراءُ، أعجـــــبُ

لبســـــنا زمانـــــاً حُســـــنَها وشـــــبابَها

ورُدّتْ إلـــــى شـــــعواء والـــــرأس أشـــــيبُ

كمأخـــــذِنا حســـــناءَ كُرهـــــاً، ودمعهـــــا

غـــــداة اللّـــــوى، مغصـــــوبةً، يتصـــــبّبُ

ويشيد بانتصارات قبيلته مذكراً طيئاً بسبي نسائهم وفي هذا دليل على قوة قبيلته وظفرهم، وهو في الوقت نفسه يبعث في نفوس الأعداء و الخصوم الضعف والرهبة وهذا ما نراه في قوله: [2]

[1]– ديوانه: ١٨. شعواء: أي أهلها: والشعراء الغارة المتفرقة.

[2]– نفسه: ٤٣ دار الحفاظ: من المحافظة على الحسب والحزم. قرارها: مستقرها عوذها وعشارها: هذان مثلان وهما من الإبل والواحد عائذ، وهي الحديثة النتاج والعشار: التي

أبلـــــغْ لـــــديكَ عـــــامِراً إن لقيتَهـــــا

فقـــــد بَلغـــــت دار الحفـــــاظِ قَرارَهـــــا

رَحلنـــا مـــن الأجبـــالِ، أجبـــالِ طـــيّءٍ

نســـــوق النســـــاءَ عُوذَهـــــا وعشـــــارَها

تـــرى كـــلَّ بيضـــاءِ العـــوارضِ طَفْلَـــةٍ

تُفـــرّى، إذا شـــال الســـماكُ، صِـــدارها

وقـــد علمـــتْ أن لا انقـــلابَ لرحلِهـــا

إذا تركـــتْ، مـــن آخـــرِ الليـــلِ، دارَهـــا

ولم يتردد عروة أيضاً من الإشادة بسادات قومه [1]، كما فعل مع الربيع بن زياد العبسي [2]

لكـــــلَّ أُنـــــاسٍ ســـــيدٌ يعرفونَـــــهُ

وســـــيّدُنا، حتـــــى الممـــــاتِ، ربيـــــعُ

إذا أمرتنـــــي بـــــالعقوقِ حليلتـــــي

فلـــــم أعصِـــــهَا، إنـــــي إذاً لمضـــــيعُ

ويتجلى الفعل الإنساني الرفيع والسلوك الخلقي النبيل لعروة في رده على قيس بن زهير وكان قد شتمه [3]

قربت أن تضع. العوارض: هن من الأسنان الضواحك: تغري: تشق.

[1]- إنظر المصدر نفسه: ٤٦.

[2]- المصدر نفسه: ٤٩. مضيع: هالك.

[3]- ديوانه: ٦٠ طحابك: ذهب بك. جف السيف: غمده. ذناب العيش: طرفه.

تمنّـــــى غُربتِـــــي قـــــيسٌ، وإنّـــــي
لأخشـــى، إن طحـــا بـــك مـــا تقـــولُ
وَصَـــارتْ دارُنـــا شـــحطاً علـــيكم
وجَـــفّ الســـيفِ كُنـــتَ بـــهِ تَصـــولُ
عليـــكَ الســـلمُ، فاســـلمها، إذا مـــا
أواك لـــــه مبيـــــتٌ، أو مَقيـــــلُ
بـــأن يعيـــا القليـــلُ عليـــكَ، حتـــى
تصـــيرَ لَـــهُ، ويأكُلـــكَ الـــذليلُ
فـــإنّ الحـــربَ، لـــو دراتْ رحاهـــا
وفـــاضَ العِـــزُّ، واتُّبـــعَ القليـــلُ
أخـــذتَ، وراءَنـــا، بـــذُنابِ عـــيشٍ
إذا مـــا الشـــمسُ قامـــت لا تـــزولُ

وهذه النصوص تشير بما لا يقبل مجالاً للشك إلى ارتباطه بالقبيلة على الرغم من كل المواقف السلبية التي اتخذتها ضده، وبذلك استطاع أن يثبت ذاته ويفرض نفسه حتى أصبحت قبيلته تأتم به، وتجعل من شعره سلاحاً ماضياً من أسلحتها التي تواجه بها أعداءها كما يؤكد ذلك صاحب الأغاني في روايته لرأي الحطيئة[1].

وتتعاظم تجربة عروة الإنسانية واندفاعه بضرورة التغيير والثورة على المفاهيم القبلية الضيقة، ومواجهة الواقع بصراحة وجرأة بعد شعوره بظلم اجتماعي

[1]- انظر ذلك في الأغاني: ٣/٧٤.

أكبر تمثل في الصراع الطبقي الذي كان سائداً في المجتمع العربي قبل الإسلام وهو صراع أقلية مالكة متحكمة في رقاب أكثرية جائعة مسحوقة.

وقد قاده هذا الإحساس إلى الثورة على سلبيات النظام القبلي الذي جعل منه، ومن صعاليكه أناساً هامشيين في المجتمع الجاهلي، ودعا إلى تغيير الوضع الاجتماعي والاقتصادي بوضع أفضل لصالح هذه الفئات المهمشة والمحرومة.

وإن حسه الإنساني، وإحساسه العميق بالغبن الاجتماعي الحاد، والتمايز الطبقي المذل للذات الإنسانية التي تعيشها هذه الشرائح دفعه إلى مد يد العون والمساعدة لهؤلاء بكل ما يملك حتى أصبح لا يملك شيئاً في هذه الدنيا غير الدرع والمخفر والسيف والرمح والفرس مدللاً بذلك على فروسيته، ومؤكّداً على أن هذه الوسائل هي السبيل الوحيد إلى إدراك المجد والكرامة في حياة الإنسان الجاهلي ومماته [1].

وَذِي أمَـــــلٍ يَرْجُـــــو تُرَائِـــــي وَإنَّ مَـــــا

يَصِـــــيرُ لَـــــهُ مِنِّـــــي غَـــــداً لَقَلِيـــــلُ

وَمـــــالِيَ مَـــــالٌ غَيْـــــرُ دِرْعٍ وَمِغْفَـــــرٍ

وَأبْـــــيَضُ مِـــــنْ مَـــــاءِ الْحدِيـــــدِ صَـــــقِيلُ

وَأسْـــــمَرُ خَطِّـــــيٌّ الْقَنـــــاةِ مُثَقَّـــــفٌ

وَأجْـــــرَدُ عُرْيـــــانُ السَّـــــراةِ طَوِيـــــلُ

وإن تجربته الإنسانية التي قوامها البذل والكرم والعطاء والتضحية وإيثار الآخرين على نفسه جعلته فقيراً، ففقره من نتاج بذله وعطائه لهؤلاء الذين يأمونه، ويشكون إليه فقرهمّ وكثرة صبيانهم كما يتبين لنا ذلك في قوله: [2]

---

[1]– انظر الفروسية في الشعر الجاهلي: ٣١٣.

[2]– ديوانه: ٥٢. المفاقر: جمع فقر.خله: حاجة. تجرف: أي تهزله وتجرف ماله. الخطوب:

إذا قُلْـــتُ قَـــدْ جَـــاء الغِنَـــى حـــالَ دُونَـــهُ

أبُـــو صَـــبيَةٍ يَشْـــكُو المَفـــاقِرَ أعْجَـــفُ

لـــهُ خلَّـــةٌ لاَ يَـــدْخُلُ الحَـــقُّ دُونَهـــا

كـــرِيمٌ أصَـــابَتْهُ حَـــوادِثُ تَجْـــرُفُ

فـــإنّي لمُســـتافُ الـــبلادِ بسُـــربةٍ

فمبلـــغُ نفســـي عُـــذرَها، أو مطَـــوّفُ

رَأَيْـــتُ بنـــي لُبنـــى عَلِـــيهِمْ غضاضـــةٌ

بيـــوتُهُم وســـطَ الحُلـــولِ، التكنّـــفُ

أَرَى أُمّ ســـرياحٍ غَدَتْ فِـــي ظعـــائنٍ

تأمّـــلُ، مـــن شـــام العـــراقِ تُطَـــوِّفُ

وواقع الفقر الذي يعيش تحت وطأته عروة جعله يشعر بالدونية والتقزيم لعدم امتلاكه القدرة على مساعدة من يحتاج إلى مساعدته قياساً بما كان يفعله رجال الطبقة الأرستقراطية وهذا ما عبر عنه عروة بقوله: [1]

يُـــريحُ علَـــى اللَّيـــلُ أضـــيافَ ماجِـــدٍ

كـــرِيمٍ ومَـــالي سَـــارِحاً مـــالُ مُقْتِـــرِ

ولما أحس عروة بن الورد بأن وسيلته في الكرم لم تحل مشكلة هؤلاء الفقراء والمحتاجين فقد أخذ على عاتقه مسؤولية انتشالهم من هذا الواقع المأساوي الذي يشيع فيه الظلم، وعدم المساواة و، وفقدان الحرية والأمن من خلال رفض وجود واقع

الأمور

[1]– ديوانه: ٣٨.

الأرستقراطية المتحكمة التي تحاول أن تفرض قوانينها، ومفاهيمها السلبية كقانون تسلط المال في المجتمع العربي آنذاك، والذي يجعل قيمة الإنسان مرتبطة بما يملك من المال دون الالتفات إلى جوهر الإنسان وقيمه الإنسانية النبيلة.

ونتيجة لذلك بدأ عروة بمحاربة الفقر، والخروج على سلبيات النظام القبلي الذي يجعل لمن يملك المال مكانة رفيعة متميزة بينما يعيش الفقراء على هامش المجتمع، مما دفع عروة وصعاليكه إلى السعي لامتلاك المال بشتى الوسائل ليؤكدوا ذواتهم ووجودهم في المجتمع.

وأوضح عروة أن محاربة الفقر يعني محاربة الاستلاب الروحي والإنساني لأن الفقر يجعل الإنسان منبوذاً في مجتمعه لا يلقى إلا الإعراض والاستهانة من أقرب الناس إليه، بينما يحظى الغني باحترام الناس، وإعجابهم، ويكون غناه سبباً في نسيان عيوبه مهما كانت [1]

دعيني للغنى أَسعى، فإني
رأيتُ الناسَّ شرُّهُمُ الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى لهُ حسبٌ وخيرُ
ويُقصيهِ النّديُّ وتزدريه
حليلتهُ، وينهرُهُ الصغيرُ
ويلقى ذا الغنى ولَهُ جلالٌ
يكادُ فؤادُ صاحبهِ يطيرُ

[1]- المصدر نفسه: ٤٥.

قليـــــــلٌ ذنبُـــــــهُ والـــــــذنبُ جـــــــمٌّ

ولكـــــــــن للغنـــــــــي ربٌّ غفـــــــــورُ

مؤكداً أن الفقر هو السبب الحقيقي الذي يقف وراء ازدراء الفقراء واحتقارهم، ويقف وراء جفاء الأقارب والأصدقاء لهم، مما يزيد من آلامهم وحرمانهم كما نتلمس ذلك في قوله: [1]

إذا المـــرءُ لـــم يبعـــثْ ســـواماً ولـــم يُـــرحْ

عليـــــهِ، وَلَـــــمْ تعطـــــفْ عليـــــهِ أقاربُـــــه

فَلَلْمـــــوتُ خيـــــرٌ للفتـــــى مِـــــنْ حَياتـــــهِ

فقيـــــراً، ومـــــن مـــــولىً تـــــدبُّ عقاربُـــــه

وقوله: [2]

إذا المـــــرءٌ لَـــــمْ يطلـــــبْ معاشـــــاً لنفســـــهِ

شـــــكا الفقـــــرَ، أو لامَ الصّـــــديقَ، فـــــأكثرا

وصـــــارَ علـــــى الأَدْنَـــــيْنَ كَـــــلاًّ وأَوْشَـــــكَتْ

صِـــــلاَتُ ذَوِي القُرْبـــــى لـــــه أن تَنَكَّـــــرا

مؤكداً ضرورة الخروج من دائرة الفقر إلى دائرة الغنى وذلك لأن: [3]

المـــــال فيـــــهِ مهابـــــةٌ وتجلـــــةٌ

والفقـــــرُ فيـــــهِ مذلّـــــةٌ وَفُضُـــــوحُ

---

[1]– ديوانه:١٩ السوام: الماشية: الطريق الواسع بين جبلين.

[2]– نفسه: ٤٤ الكل: الثقيل الذي لا خير فيه.

[3]– نفسه:٢٤.

وإن هذا الواقع الطبقي اللاإنساني دفعه إلى إعلان رفضه، وتمرده على كل القوانين التي تحاول تهميشهم، وتستهدف كرامتهم متخذاً من الغزو وسيلة لإحقاق حقهم في العيش بحرية وأمان، وما الغزو إلا وسيلة إلى غاية إنسانية نبيلة تتمثل في دفع الظلم عن فئة المحرومين وحماية الضعفاء من تسلط الأقوياء، ووجد بأن حياة الصعاليك ينبغي أن تقوم على الفعل البطولي ليتحولوا بواسطته من موقع الخضوع إلى موقع المواجهة ومقارعة الظلم والاضطهاد توكيداً للحق والكرامة، وإثباتاً للوجود والذات.

لذا عمد عروة بن الورد إلى حث صعاليكه على الغزو والاحتراب بدل القعود والخمول والتقاط بقايا الجذور: [1]

قلـــتُ لقـــومٍ، فـــي الكنيـــفِ، تروَّحـــوا

عشـــيةَ بتنـــا عنـــدَ مـــاوانَ، رُزّحِ

تَنـــالوا الغِنـــى، أو تبلغـــوا بنفوسِـــكُمْ

إلـــى مُســـتراحٍ مِـــنْ حِمَـــامٍ مبِّـــرحِ

وَمَـــنْ يَـــكُ مثلـــي ذَا عيـــالٍ ومقتـــراً

مـــن المـــالِ، يطـــرحُ نفســـه كـــلَّ مطـــرحِ

ليبلـــغَ عُـــذراً، أو يُصـــيب رغيبـــةً

ومبلـــغُ نفـــسٍ عُـــذرها مثـــلُ مـــنجحِ

ولجأ عروة إلى ممارسة دور المحرض على تجاوز عوامل الضعف والعجز عن صعاليكه، وتمثل قيم الحرية ومعانيها من خلال إثارة مكامن القوة فيهم للخلاص

[1] – نفسه: ٢٣، تروحوا: ساروا بالراوح. ماوان: واد فيه ماء. المستراح: الاستراحة. الحمام المبرح: الموت الشديد. مقتر: معل.

من الظلم والاستغلال وآثارهما السلبية فنراه يشيد بالبطل الصعلوك الذي صحيفة وجهه بيضاء ناصعة، يقضي حياته في العمل والكفاح والمغامرة، يعلو خصومه، ويستقبل الموت حميداً قائلاً: [1]

وَلَكِـــنَّ صُـــعلوكاً، صـــحيفةُ وجهِـــهِ

كضـــوءِ شـــهابِ القـــابسِ المتنـــوّرِ

مُطـــلاً علـــى أعدائـــهِ يزجرونـــه

بســـاحتِهم، زَجـــر المنـــيحِ المشـــهَّرِ

إذَا بَعُـــدُوا لا يَـــأْمَنُونَ اقْتِرابَـــهُ

تَشَـــوُّفَ أَهْـــلِ الغائِـــبِ المُتَنَظَّـــرِ

فَـــذَلِكَ إنْ يَلْـــقَ المَنِيّـــةَ يَلْقَهَـــا

حَمِيـــداً، وإنْ يَسْـــتَغْنِ يَوْمـــاً فَأَجْـــدِرِ

وينال من المتواكلين الذين قنعوا بالذل والمهانة، ورضوا أن يعيشوا في مستنقع الحاجة والسؤال [2]

لحـــى اللُّـــهُ صـــعلوكاً، إذا جـــنَّ ليلـــه

مُصـــافي المشـــاشِ، آلفـــاً كـــلَ مجـــزر

يَعُـــدّ الغنـــى مـــن نفســـه، كـــلَّ ليلـــةٍ

أصـــابَ قراهـــا مـــن صـــديقٍ ميّســـر

[1] – ديوانه:٣٧ مطلاً: مشرفاً. يزجرونه: يصيحون به.

[2] – نفسه ٣٧ مصافي المشاش: مختار، مؤثر للأكل. المشاش: رأس العظم اللين. المجزر: الموضع الذي يجزر فيه الإبل.

مؤكداً احتقاره، ورفضه للصعلوك الخامل الذي فقد طموح التغيير والثورة، واستسلم لواقع الذل والعبودية حتى أصبح لا همَّ له سوى البحث عن الطعام، والعيش عالة على الآخرين.

وثمة ظاهرة برزت في شعر عروة جاءت مرتبطة بفكرة الفعل البطولي تمثلت في شيوع ظاهرة السعي والتطواف في سبيل الحصول على المال بوصفه وسيلة لخلق حالة من الأمن والاستقرار له ولصعاليكه حتى وإن كانت هذه الظاهرة مرتبطة بالموت لأن الموت في نظره يعد خلاصاً من حياة مرتبطة بذل يصيب الإنسان إذا كان فقيراً [١]

أَرَى أم حسَّـــــانَ الغَـــــدَاةَ تَلُـــــومُني

تُخَـــــوِّفُني الأعْـــــدَاءَ والـــــنَّفْسُ أخْـــــوَفُ

تقـــــولُ سُـــــليمى لـــــو أقمـــــتَ لســـــرَّنَا

وَلَـــــمْ تَـــــدرِ أنـــــي للمقـــــامِ أطـــــوفُ

وأشار أحد الباحثين إلى (أن استعداد الشاعر الصعلوك لملاقاة الموت قد يتجاوز أزمته النفسية الناجمة عن مقابلة بين القيم والمثل وبين الواقع) [٢] المأساوي الذي يعيش تحت وطأته الصعاليك كما يتضح ذلك في قوله: [٣]

ذَرينـــــي أَطـــــوّفُ فـــــي الـــــبلادِ لعلنـــــي

أخلِّيـــــكِ، أو أَغنيـــــكِ عَـــــنْ ســـــوءِ محضـــــري

فـــــإنْ فـــــازَ ســـــهمّ للمنيـــــةِ لَـــــمْ أكـــــنْ

---

[١]– ديوانه: ٥١.

[٢]– مدخل إلى الأدب الجاهلي: احسان سركيس: ٢٠٩.

[٣]– ديوانه: ٣٦.

جَزوعَـــاً، وَهَـــلْ، عَـــنْ ذَاكَ، مـــن متـــأخر؟

وَإِنْ فـــازَ ســـهمي كفكـــم عَـــنْ مقاعـــد

لَكُـــمْ خَلـــفَ أدبـــارِ البيـــوتِ، ومنظـــرِ

ومن هنا ندرك سر الحاح عروة بن الورد على السعي والترحل وغالبا ما كان ينصح صعاليكه بذلك:[١]

وَقلـــتٌ لأصـــحابِ الكنيـــف: ترحلـــوا

فلـــيسَ لكـــمْ، فـــي ســـاحةِ الـــدارِ مقعـــدُ

فالرحيل في نظر عروة نوع من مواجهة الواقع ووسيلة للخلاص من ذل العبودية والاستكانة:[٢]

خَاطـــرْ بنفسِـــكَ كـــي تصـــيبَ غنيمـــةً

إن القعـــــود، مـــــع العيـــــالِ، قبـــــيحُ

المـــــالُ فيـــــهِ مهابـــــةٌ وتجلـــــة

والفقـــــر فيـــــهِ مذلـــــة، وَفُضَـــــوحُ

ويكشف الشاعر عن ذلك بوضوح أكثر حين يستقطب فكرة الموت في سبيل تحقيق غاياته في الخلاص ويصبح في نظره بديلا جميلا على أن يعيش حياته هزيلا كما يتضح ذلك في قوله: [٣]

أَقيمـــوا بنـــي لبنـــى صـــدورَ ركـــابِكُمْ

---

[١]– نفسه: ٢٨.

[٢]– نفسه:٢٤.

[٣]– ديوانه: ٥٤ أقيموا: أي وجهوا في الغزو وانصبوا له. الهزل: الجوع.

فكـــلٌ منايـــا الـــنفسِ خيـــرٌ مِـــنَ الهـــزلِ

وتبرز ثنائية الموت والحياة في شعره فالموت أصبح لديه ملاذا ومنقذا من حياة بائسة لا تقترن بالغنى واليسار، لذا نراه يحث على طلب المال كي يعيش صعلوكه ميسور الحال أو يموت معذورا كما ورد في قوله: [1]

فَسِـــرْ فِـــي بـــلادِ اللّـــهِ، والـــتمسْ الغنـــى

تَعِـــشْ ذَا يَســـارٍ، أو تَمـــوتَ فَتُعـــذَرا

ولما كانت الصعلكة عند عروة بن الورد تقوم على فلسفة الغزو والنهب والسلب إلا أنها لم تكن نابعة عن ذات فوضوية طائشة وإنما كانت منبثقة عن ذات واعية لطبيعة الواقع الذي تعيشه الفئات الفقيرة المحرومة متضمنة بعدا إنسانيا وأخلاقيا يتنافى مع هذا السلوك الذي آمنوا به ووجدوا فيه كرامة وارتفاعا بأنفسهم عن ذل الحاجة والسؤال.

وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى وصف ظاهرة صعلكة عروة بأنها (حركة احتجاج جماعية على نمط من الحياة الاقتصادية في سبيل نمط آخر لم يستطع أن يتبين عروة حدوده الإيجابية إلا من خلال أخلاق الفروسية العربية، وقد وضعت لخدمة أغراض عادلة للجماعة المضطهدة بعيدا عن هدف الغزو أو لغرض التفوق وزيادة الثروة والمال) [2] وتتضح هذه التجربة الإنسانية والأخلاقية متجاوزة الكسب المادي في كثير من مواقفه.

وقد استطاع عروة فعلاً (تحويل الغزو من فعل استغناء إلى فعل اكتفاء ومن حركة سطو إلى إحقاق الحق) [3]، معززاً صعلكته بمزيد من القيم والمناقب التي تمتع بها، ومارسها في حياته وغزواته رافضاً الاستكانة والخنوع لذوي المال

---

[1] – نفسه: ٤٤.

[2] – موسوعة الشعر العربي: ١٥٩.

[3] – موقف الأديب العربي من التحديات عبر التاريخ: د. ياسين الأيوبي: ٣٤(بحث)

والنفوذ على حساب الاستقرار النفسي والاجتماعي فكانت له غير صرخة وغير استنفار كقوله: [1]

دَعِينـــي أُطَـــوِّفْ فـــي الْـــبلاَدِ لَعَلَّنـــي

أُفِيـــدُ غِنًـــى فِيـــه لـــذِي الْحـــقّ مَحْمِـــلُ

ألـــيْسَ عَظيمـــاً أنْ تلِـــمَّ مُلِمَّـــةٌ

وَلـــيْسَ عَلَيْنـــا فـــي الْحُقُـــوق مُعَـــوَّلُ

فَـــإنْ نَحْـــن لَـــمْ نَملـــكْ دفاعـــاً بحـــادثٍ

تلـــم بـــه الأيـــام، فـــالموت أجمـــل

ويصبح الموت في نظر عروة أجمل من الحياة التي يعيش فيهاالإنسان فقيراً ذليلاً مضطهداً والموت عنده أيضاً لم يعد مرادفاً للعدم والاستسلام والانسحاق، بل يصبح نوعاً من المواجهة وتحويل الفعل السلبي إلى فعل إيجابي يحقق به الشاعر حريته لإيمانه بأن لا قيمة للحياة إلا إذا كانت مرتبطة بالحرية.

لذا لم يعد عروة يحتمل أن يرى نفسه ولا غيره من الفقراء على موائد الأغنياء، أو تحت رحمتهم حتى بلغ حسه المرهف بكرامة الإنسان إلى يد رفضه لمثل تلك الحياة، وعدم قبولها إلا إذا كانت موفورة الكبرياء والكرامة كما جاء في قوله: [2]

وَرُبّـــتَ شُـــبعةٍ آثـــرتُ فيهـــا

يـــداً، جـــاءت تغيـــر، لهـــا هتيـــتُ

يقـــولٌ، الحـــقّ مطلبَـــهٌ جميـــلً

[1]– ديوانه: ٦٢ الحق: الحزم.المحمل: الجهد.

[2]– ديوانه: ٢٠ وما بعدها. يقيتوا: من أقاته: أعطاه قوته.

وقـــــد طلبـــــوا إليـــــك، فلـــــم يقيتـــــوا

فقلـــــتٌ لـــــه: آلا أحْـــــيَ، وأَنـــــتَ حُـــــرٌّ

ستشـــــبعُ فـــــي حياتِـــــكَ، أو تمـــــوتُ

وغالباً ما كان عروة يحث صعاليكه، ويثير حماسهم، ويستنهض هممهم للقيام بواجبهم في مواجهة التسلط والقهر والظلم الذي يتعرضون له بسبب فقرهم، ومن هنا جاءت دعوته للحصول على المال بوصفه وسيلة لحفظ كرامة الفقير وتوكيد إنسانيته واحترام الآخرين له لذا نجده يضرب المثل بنفسه لصعاليكه ويطلب منهم أن يفعلوا مثل فعله: [١]

ولعل إيمان عروة بحتمية الموت وفكرة الآجال دفعته للمخاطرة بنفسه من أجل الآخرين فهو يرى أن لكل حياة أجلاً، وأن الإنسان لا محالة ميت ولم يبق منه سوى حسن الأحدوثة والذكر الحميد كما يتضح ذلك في قوله: [٢]

أقلّـــي علـــيَّ اللـــومَ يـــا ابنـــةَ منـــذرِ

ونـــامي، وإن لَـــمْ تَشـــتهي النـــومَ، فاســـهري

ذرينـــــي ونفســـــي ام حســـــان انننـــــي

بهـــا قبـــلَ أن لا أَملـــكَ البيـــعَ مُشـــتري

أَحاديـــثَ تبقـــى والفتـــى غَيـــر خالـــدٍ

إذا هـــو أَمســـى هامـــةً فـــوقَ صُـــيّر

[١]– انظر ديوانه: ٢٣.

[٢]– ديوانه: ٣٥ صيد: حجارة: الكناس: اسم موضع.

تجـــــاوبٌ أَحجـــــار الكنـــــاسِ وتشـــــتكي

إلـــــى كـــــلَّ معـــــروفٍ رأَتـــــه ومنكـــــر

وقوله: [1]

وإنَّ المنايـــــا ثغـــــر كـــــلِ ثنيـــــةٍ

فَهَـــلْ ذاكَ عمـــا يَبْتَغِـــي القـــوم مُحصـــر ؟

وغبـــــراءَ مخشـــــيّ رداهـــــا، مّخوفـــــة

أخوهـــــا بأســـــبابِ المنايـــــا مُغـــــرَر

ويبدو إن محاولة عروة في إبراز وترسيخ القيم الإنسانية التي آمن بها جاءت كبديل للواقع المأساوي المفروض عليه وبخاصة عندما وجد أن لا خلود للإنسان إلا بما يخلّفه من مكارم الأخلاق وروائع الشيم وهذا ما جعله يضفي على الصعلكة بعداً إنسانياً نبيلاً تجلى واضحاً في فروسيته الحقّ، لأن الفروسية في العصر الجاهلي تعني (البطولة في الحرب، وإطعام الضيف، وحماية الحقيقة، والذود عن المرأة، وتلبية دعوة المستغيث، واستجابة لصرخة المادي وغير ذلك مما تستوجبه النخوة، ويتطلبه الشعور الإنساني)[2] حتى أصبح عروة بن الورد النموذج الأعلى للبطولة، لأن النموذج الأعلى للبطل (هو ذاك الذي يتجاوز فرديته إلى حد كبير، ويذيب هويته في هوية الجماعة التي ينتهي إليها سواء أكانت قبيلة أم طبقية أم دينية)[3]

وينبغي أن نشير ايضاً إلى أن عروة لم يكتف ببطولته في مواجهة استبداد الأغنياء في المجتمع الجاهلي، وإنما عزز الفعل البطولي لديه ولدى صعاليكه بالفعل الأخلاقي والإنساني الذي يليق بالنموذج الصعلوكي الحر.

---

[1]- ديوانه: ٣٩ محصر: حابس. غبراء: مظلمة ليست بمسفرة الطرق.

[2]- الفروسية في الشعر الجاهلي: ٢٩

[3]- في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي: ٣٢٢.

فالقيمة الأخلاقية لا تقل أهمية عن الفعل البطولي في تأثيرها في نفوس الناس ونتيجة لذلك حاول عروة بن الورد اثبات ذاته بالجود والكرم والتضحية، وايثار الآخرين على نفسه.

ومن النماذج الشعرية الجميلة التي تجسد مروءة عروة، وأخلاقه النبيلة التي فرضت عليه إشراك غيره من الفقراء والمحتاجين فيما يحصل عليه من أموال الأغنياء قوله: [1]

إنـــي امـــرؤ عـــافي إنـــائي شـــركةً

وأنـــتَ امـــرؤٌ عـــافي إنائـــك واحـــد

اتهـــزأُ منـــي إن سَـــمِنْتَ وَأَنْ تـــرى

بـــوجهي شـــحوبَ الحـــقِ، والحـــقُ جاهـــدُ

أُقسّـــمُ جســـمي فـــي جســـومٍ كثيـــرةٍ

وأحســـو قـــراحَ المـــاءِ، والمـــاءُ بـــاردُ

وهذه الأبيات هي التي دفعت عبد الملك بن مروان للقول (ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد) [2]، ويؤكد كرمه وسماحته بقوله: من زعم أن حاتماً اسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد) [3]

وإن بروز المعاني الكريمة في كثير من نصوصه الشعرية هي التي جعلت الكثيرين من معاصريه وممن جاءوا بعده يعجبون به اعجاباً كبيراً .

فقد كانت قبيلته تأتم به لخصاله الحميدة وكان معاوية يقول: (لو كان

---

[1]- ديوانه:٢٩.

[2]- الأغاني: ٣٤/٣، وانظر العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف: ٣٨٤.

[3]- المصدر نفسه: ٧٣/٣.

لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم) [١].

وإن استقراء ديوان عروة يظهر بوضوح طغيان هذه المعاني فنراه يؤكد كرمه عندما يجعل فراشه فراشاً للضيف وبيته بيتاً للضيوف، يجالسهم ويحادثهم لأن الحديث جزء من القرى يقول: [٢]

فِرَاشِـــي فِـــرَاشُ الضـــيفِ والبيـــتُ بيتُـــه

ولـــــم يلهنـــــي عَنْـــــهُ غـــــزالٌ مقنـــــعٌ

أُحَدثُـــــهُ، إنَّ الحـــــديثَ مِـــــنَ القِـــــرى

وتعلـــــمُ نفســـــي إنـــــهُ ســـــوفَ يَهَجـــــعُ

وقد كان عروة يبذل ما يملك بوجه ملئ بالبشاشة دون أن يطلب منه ذلك كما جاء في قوله [٣]:

سَـــلِي الطـــارقَ المعتَّـــرَ يـــا أُمَ مالـــكٍ

إذا مَـــا أَتـــاني بـــينَ قـــدري ومجـــزري

أَيســـفرُ وجهـــي، إنَّـــهُ أوّلُ القِـــرى

وأبـــذُلُ معروفـــي لَـــهُ دونَ منكـــري

ويظل الدافع الإنساني المحرك الرئيس الذي يكمن وراء ايثار عروة للسائل والمحتاج، يختار الجوع لنفسه ليأكل الجياع، ويعرض حياته للهلاك في سبيل انقاذ

[١]– نفسه: ٣/٧٣.

[٢]– نفسه: ٤٩.

[٣]– ديوانه: ٤٤ الطارق: الآتي ليلاً: المعتر: الآتي للمعروف من غير أن يسأل. المجزر: مكان الجزر: يسفر: يشرق.

الفقراء وبخاصة في أوقات القحط والجدب[١]:

قعيـــدك عمـــر اللّـــه، هَـــلْ تعلميننـــي

كريمـــاً، إذا اســـودّ الأَنامـــلُ، أزهـــرا

صـــبوراً علـــى زرء المـــوالي، وحافظـــاً

لعِرضِيَ، حتى يُؤكلُ النبتُ أخضرا

أقـــبُّ، ومخمـــاص الشـــتاءِ، مُـــرَزَّأ

إذا أغبَـــرَّ أولاد الأذلـــة أســـفرا

ولا شك إن كرم عروة ذو بعد إنساني نبيل أبعد بكثير من نرجسية التسيد والزهو الأرستقراطي كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين بقوله: (وتتجلى قيم الصعاليك بتصعيد نوعي للإيجابي من القيم الخلقية الموروثة من القبيلة، فالكرم لم يعد كرما أرستقراطيا يستفرد به الثري والوجيه والتاجر، ويمارس في حالات عده بهدف استعراض السيادة الاجتماعية والزهو الثرائي أو للحفاظ على صيت اسري معروف.. بينما أضحى الكرم عند الصعلوك العربي طقسا فروسيا وضرورة اجتماعية وحلا جماعيا لتوفير حد أدنى في المساواة شبه الطوباوية لعدالة اجتماعية شفيفة واهية إلا أنها حية في روح الجماعة) [٢] ومن هنا برز كرم عروة في موسم القحط بخاصة لانها عنوان البذل والإيثار فنراه ينحر لعيال الحي ولذوي الجيران الجزور قائلاً [٣]:

---

[١]– ديوانه: ٣٤ وما بعدها، مرزأ: أي ينال مني ويصاب الخير ولا يخيب على أحد.

[٢]– الصعاليك العرب رفض وتمرد ونزوع اشتراكي رومانسي: شاكر السماوي: ٥٧ (بحث)

[٣]– ديوانه: ٢٥ القدح: سهم الميسر.

هـــــلا ســـــألتَ بنـــــي عـــــيلان كلّهـــــمُ

عنـــــدَ الســـــنين، إذا مـــــا هَبَـــــتْ الـــــرّيحُ

قَـــدْ حـــانَ قِـــدحُ عيـــالِ الحـــيّ إذ شـــبعوا

وآخـــــــرُ لـــــــذوي الجيـــــــران ممنـــــــوحُ

ومن الطبيعي بعد ذلك أن لا يتفق كرمه مع البخل في رأي سواء أكان عطشاناَ أم كان رياناً[1]:

وَقَـــــدْ عَلِمَـــــتْ سُـــــليمى أَنَّ رأَيـــــي

وَرَأَيَ البُخـــــــلِ مُختلـــــــفٌ شـــــــتيتُ

وَأَنِـــــــي لَاْ يُرينـــــــي البخـــــــلَ رأيٌ

ســـــــواء إِنْ عَطَشْـــــــتٌ، وإِنْ رويـــــــتُ

وصحيح أن عروة حريص على جمع المال، وانتزاعه بغية تحويله إلى إغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع تجسيداً للمحبة الإنسانية، بيد أنه لا يتهاون أبداً في حرية أو كرامة بل يرى حريته وكرامته فوق ذلك كله [2]:

إذا آذاكَ مالُـــــــــــــكَ فأمتهنـــــــــــــه

لجاديـــــــــــهِ، وإِنْ قـــــــــرعَ المـــــــــراحُ

وَإِنْ أَخنـــــــى عَليـــــــكَ، فَلَـــــمْ تجـــــدهُ

---

[1]– ديوانه: ٢١.

[2]– نفسه: ٢٤ الجادي: طالب الجدوى. المعروف قرع: فرغ. المراح:الموضع يروح القوم منه واليه.

فنبـــــــت الأرضِ والمـــــــاءُ القـــــــراحُ

فَـــــرغم العـــــيشِ إلـــــفُ فنـــــاءِ قـــــومٍ

وإنْ آســـــــوكَ والمـــــــوتُ الـــــــرَّواحُ

وتتجلى الأبعاد الإنسانية عند عروة بن الورد في سلوكه النبيل، وأخلاقه الكريمة وفي كل ما كان يصنعه من إحسان، وبذله من عطف وقد تمثل أفضل تمثيل في دفاعه عن الجوار واتصافه بالعفة التي ترفعه عن كل ما يسيء إلى مروءته وهذا ما أكده في قوله:[1]

فَـــلَا أَتـــرك الإخـــوانَ، مَـــا عشـــت، للـــرّدى،

كمـــــا أَنَّـــــهُ لا يتـــــرك المـــــاءَ شـــــاربه

وَلَا يُستضامُ، الدهرَ، جاري، ولا أُرى

كَمَـــنْ بَـــاتَ، تســـري للصـــديقِ عَقَارِبُـــه

وإن جـــــارتي أَلـــــوَتْ ريـــــاحٌ ببيتِهَـــــا

تغافلـــت، حتـــى يَسْـــتُرَ البيـــتَ جانِبُـــه

وعروة في ذلك كله يسعى إلى الانتصار لفكرته

مثـــــرٍ، وَلَكِـــــنْ، بالفعـــــالِ، يَســـــودُ

بَـــلْ لِأْ أُكـــاثرُ صـــاحبي فـــي يُســـرِهِ

[1]– نفسه:١٩ الوت رياح بيتها: أي ذهبت به وألقته.

[2]– ديوانه: ٢٧ الفعال: الفعل / الحسن. الكرم: تصريد تقطيع.

وَأَصُـــــدُّ إذ فـــــي عَيشِـــــهِ تَصْـــــرِيدُ

فَـــــإذا غنيـــــتُ، فـــــإنَّ جـــــاري نيلـــــه

مِـــــنْ نَـــــائِلِي، وَمَيسَـــــري معهـــــودُ

ومن خلال هذا كله تتضح القيم الإنسانية في شعر عروة بن الورد متمثلة في مواقفه البطوليه، وفي إنتمائه القبلي، وكرمه وعطائه وتضحيته، وفي سماحته وعفته، وفي نضاله لتحقيق حلمه وحلم آلاف الفقراء من أمثاله في العدالة الاجتماعية والمساواة، مسخراً نفسه من أجل حمايتهم، وتحقيق طموحاتهم في أن يعيشوا حياة كريمة، مؤكداً ضرورة ترسيخ هذه المفاهيم والقيم الإنسانية لبناء مجتمع يقوم على العدل والمساواة بين الناس، وأن تكون قيمة الإنسان فيه مرتبطة بهذه القيم، لا أن تكون قيمته مرتبطة بما يملك من المال.

وقد تمكن عروة من تجسيد هذه القيم بشكل عملي في سيرته، وفي الكثير من مواقفه حتى تمكن من تحويل الفكر إلى ممارسة عملية، مثلما نجد ذلك عند أغلب المفكرين من على صعيدي الفلسفة والأدب، كسقراط مثلاً الذي لم يكتب شيئاً، بل إن قراءة سيرته الذاتية تكشف الجوانب الأخلاقية كافة التي أراد أن يؤسسها والتي نظمها تلامذته كأفلاطون وأرسطو من بعده.

الخاتمة:

وفي نهاية هذه المرحلة لابد لنا من الإشارة إلى ابرز النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة والتي يمكن إجمالها بالآتي:

(١) بدأت الدراسة باستخلاص أهم الآراء التي قيلت في عروة وشعره، وموقفه الشعري ضد المألوف قديماً مستعينة بأهم المصادر التي تعرضت لشعر الصعاليك من حيث القيم الإنسانية التي وجدوها حريّة بالإشاعة والتمثل والإدراك.

(٢) أبرزت الدراسة القيم الإنسانية لدى عروة متمثلة في طريقة تعامله مع قبيلته التي تنكرت له، وكانت سبباً في غربته إلا أنه ترفع أن يعاملها بمثل ما تعامله فلم يحقد عليها، ولم ينفصل عنها انفصالاً تاماً كما فعل غيره من الصعاليك، وإنما ظلّ مستمراً بالولاء لها، يسرع لنجدنها إذا تعرضت للعدوان.

(٣) إنَّ محاولة عروة في إبراز القيم الإنسانية وترسيخها التي آمن بها وقد جاءت بديلاً للواقع المأساوي المفروض عليه، وبخاصةٍ عندما وجد أن لا خلود للإنسان إلاّ بما يخلفه من مكارم الأخلاق، وروائع الشيم، وهذا ما جعله يضفي على الصعلكة بُعداً إنسانياً نبيلاً تجلى واضحاً في فروسيته الحقة.

(٤) إنّه عروة لم يكتف ببطولته في مواجهة استبداد الأغنياء في المجتمع الجاهلي، إنما عزّز الفعل البطولي لديه، ولدى صعاليكه بالفعل الإنساني، والأخلاقي الذي يليق بالنموذج الصعلوكي.

(٥) تمثلت بعض قيم عروة الإنسانية في نضاله لتحقيق حلمه، وحمله آلاف الفقراء من أمثاله في العدالة الاجتماعية، والمساواة مسخراً نفسه من أجل حمايتهم، وتحقيق طموحاتهم في أن يعيشوا حياة حرة كريمة، مؤكداً ضرورة ترسيخ هذه المفاهيم والقيم الإنسانية لبناء مجتمع يقوم على العدل والمساواة بين الناس، وإن تكون قيمة الإنسان فيه مرتبطة بهذه القيم، لا أن تكون قيمته مرتبطة بما يملك من المال.

وفي الختام حاولت هذه الدراسة من الوقوف على قيم عروة الإنسانية وأفكاره

في الحياة والمرأة والجار توضح مثالية في الفروسية قلَّ نظيرها كما أنها تشير إلى كرمه الذي فاق كل كرم.

(٦) أشرت هذه الدراسة قضية الانفصام الطبقي الحاد الذي عاشه الشاعر الجاهلي، فلا مؤثرات النسب وجريرته، ولا الموقف الاجتماعي القبلي الذي نشأ فيه الشاعر الذي رفض كثيراً من قيمه وثوابته وظواهره من زاوية الرفض وللتمرد القائم على رؤية إنسانية شاملة وواقعية صادقة في آن واحد.

المصادر والمراجع :

١- الأصول الفنية للشعر الجاهلي . د.سعد إسماعيل شلبي . منشورات مكتبة غريب الفجالة . ١٩٧٧م.

٢- اصول نظرية نقد الشعر ومدارات نقدية . د. عناد غزوان . مركز عبادي للدراسات والنشر . صنعاء . ط١. ١٩٩٨م.

٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية – بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم – مؤسسة جمال للطباعة والنشر. بيروت . د. ت.

٤- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني–أحمد الشايب – دار القلم – بيروت– لبنان ط٥. ١٩٧٦م.

٥- تيارات معاصرة في الشعر الجاهلي . د. سعد دعبيس . دار الثقافة. القاهرة . ١٩٨٠م.

٦- الثابت والمتحول . أدونيس . دار العودة . بيروت . ط٢ . ١٩٧٩م.

٧- الحياة العربية من الشعر الجاهلي . د. أحمد محمد الحوفي . دارنهضة مصر للطباعة والنشر . القاهرة . ط٥ . ١٩٧٢م.

٨- ديوان عروة بن الورد . تحقيق كرم البستاني . دار صادر . بيروت . لبنان . ١٩٦٤م.

٩- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . د. يوسف خليف . دار المعارف . مصر . مكتبة الدراسات الأدبية (٨) . القاهرة . ١٩٥٩م.

١٠–شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . د. عبد الحليم حلفي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٧٩م.

١١–الشعر والشعراء . لابن قتيبة– دار إحياء العلوم . بيروت . ط١ .١٩٨٤م.

١٢–الصعاليك في الجاهلية لصوص أم رواد ثورة اجتماعية – محمد أمين ضناوي – دار الشرق الأوسط – ط١ – ١٩٩٧م.

١٣- العصر الجاهلي . د. شوقي ضيف . دار المعارف . بمصر . القاهرة . ط٤ .١٩٦٠م.

١٤-الفروسية في الشعر الجاهلي . د. نوري حمودي القيسي . منشورات مكتبة النهضة . طبع دار التضامن . بغداد . ط١ . ١٩٦٤م.

١٥-في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي . د.احمد محمود خليل . دار الفكر المعاصر . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٩٦م.

١٦-مدخل إلى الأدب الجاهلي . إحسان سركيس . دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت د.ت.

١٧-موسوعة الشعر العربي . اختارها وقدم لها مطاع صفدي وايليا حاوي . أشرف عليها د. خليل حاوي . حققها وصححها أحمد قدامة . دار النفائس . بيروت . لبنان

١٩٧٤م.

البحوث :

- حركة الصعلكة والنزعة الاجتماعية الاشتراكية في شعر الصعاليك إلى القرامطة . وائل أيوب ... مجلة الثقافة السورية . العدد ٤٠. أب أغسطس . ١٩٩٧م.
- الصعاليك العرب رفض وتمرد ونزوع اشتراكي رومانسي . شاكر السماوي . مجلة الحكمة . اليمن – العدد ١٩١ . مايو . ١٩٩٢ م.
- موقف الأديب العربي من التحديات عبر التاريخ . د. ياسين الأيوبي . مجلة الكويت . العدد . ١٨٦ . أبريل . ١٩٩٩م.